إزعـــاج

أصبح كلامه اليومي في طلب الهدوء، لا يتقدم ولا يؤخر نوعاً من التنفيس لا غير. فصغر حجم المنزل، وقسوة الشغل ومتطلباته، وضيق ذات اليد، أمور لا يمكنه الصبر طويلاً على معاناتها، ولكن ما الحيلة؟؟

للمرة العاشرة

قلت لك: كُفِّي صراخ الأطفال عني، حلِّي مشاكلك معهم، لا داعي لهذه الضوضاء.

هل تريدين أن أخرج، وأترك لكم المنزل كله، وأعود من حيث أتيت؟؟ أريد أن أرتاح، من فضلك، لو سمحت، أرجوك أعصابي لم تعد تحتمل...!!

عبارات اعتادت ربة البيت على سماعها منه، في كل يوم.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً، إنهم هم الأطفال في صخبهم وبراءتهم وضجيجهم... ليس طبعياً أن نطلب منهم أن يكونوا رجالاً، وهم لم يزالوا صغاراً مساكين، إنَّهم يبكون ويصرخون ويتشاجرون فتدوي أصواتهم في هذا البيت الضيق ثم إن أعصابها هي الأخرى قد احترقت، ولكنها لم تنس أبداً أن وجودهم معها في البيت أفضل من خروجهم إلى الشارع، لا بد من التضحية، وهم يستحقون فعلاً التضحية.. لا حيلة معهم إلا الصبر، وتلطيف جو المنازعات بقدر الإمكان.

قال لها:

- أنت تعوَّدت على إزعاجهم.. أخذت مناعة، أصبحتِ لا تتأثرين.. أما أنا فلا أستطيع.. أبداً.. أنا آتي إلى البيت لكي أستريح..

أتفهمين معنى أستريح..؟؟ هذا يعني يا أم بندر أنني مثقل بالهموم ومشكلات العمل، وأريد أن أهرب منها بعض الوقت، فماذا

أجد؟؟ أولاد مثل... (أعوذ بالله)؟ إذا سكتوا عن الشغب والصراخ، لم يسكتوا عن الطلبات، التي تصدِّع الرأس، كل واحد له طلب، يريد أن أحقق له شيئاً، أو آخذ له الحق من أخيه. إن خصوماتهم لا تتوقف إلا في فترة هدنة مؤقتة لا تزيد عن ساعة أو بعض ساعة، ثم تعود الساحة في المنزل مليئة بالأحذية المتبادلة، والملابس المتناثرة على غير نظام، والكتب المدرسية المبعثرة بعد انتهاء الدوام الدراسي، وقطع الألعاب التي ينقضُّون عليها تفكيكاً وتخريباً حتى تصبح في خبر كان.

أصبح كلامه اليومي في طلب الهدوء، لا يقدم ولا يؤخر، غدا نوعاً من التنفيس لا غير، فصغر حجم المنزل، وقسوة الشغل ومتطلباته، وضيق ذات اليد، أمور لا يمكنه الصبر طويلاً على معاناتها، ولكن ما الحيلة؟؟

أما كان الأولى أن يكتفي بولدين.. أو ثلاثة؟؟.. لماذا يحمل نفسه ما لا تحتمل؟ لكنه سرعان ما يطرد وساوس الشيطان، ويقنع نفسه أن الأولاد زينة الحياة الدنيا، وأنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء. وأن كل مولود يأتي برزقه معه، فلم يخلق الله مخلوقاً يضيعه، وسيفرح بهم، ويرى منهم ما يسره في المستقبل، وينسى ما كابده في الحياة من أجلهم.

ويترنم ببيت شعر شعبي يقول:

العود يوم إنــه يجيب العيـالِ

يبي بتالي العمر لذة وطربات

هكذا كانت نفسيته بين مدٍّ وجزر، بين صبر وتصبر في مرة، وجزع وتضايق مرة أخرى.

وفي يوم من الأيام تلفت أعصابه إلا قليلاً، في هذا اليوم عاد بطفلين من أطفاله من الوحدة الصحية، واشترى لهما علاجاً بمائتين وخمسة وثمانين ريالاً. وقبلها اشترى لهما حاجيات بتسعمائة ريال.

كانت الساعة الرابعة عصراً، وكان قد أدَّى صلاة العصر، وسأل وألحَّ في سؤال الله أن يعينه على تربية أولاده، وتدبير معاشهم، وأن يكونوا بركة عليه، وأن يكون هو أيضاً بركة عليهم، وخرج من المسجد دون أن تكون في ذهنه جهة محددة يذهب إليها. كان يريد فقط أن يجد شيئاً من الراحة بعيداً عن المنزل وعالمه المزعج.

كان يُسائل نفسه أين ستذهب يا (أبو بندر)؟ أين ستذهب...؟؟ وبرق في ذهنه اسم ابن خاله أبي عبد اللطيف، كان رجلاً موسراً، لديه خير كثير... من العمارات والعقارات، يعيش سعيداً في ثراء كبير، لقد عاد من سويسرا قبل أكثر من أسبوعين، وكان عليه أن يذهب لزيارته، فله حق عليه، وهو الذي دائماً ما يساعده، فيعطيه ما يريد من مال، ويجعله كأنه قرض لكي لا يكسر خاطره.

ونظر إلى الساعة الرابعة والنصف، وتساءل بينه وبين نفسه أهذا وقت زيارة؟ ألا يصبر حتى يأتي بعد المغرب فيكون الوقت أنسب؟ ولكن.. هذا الوقت لا بأس به؟ وحتى لو قيل له: إنه نائم أو مشغول فسيعود أدراجه، ثم يأتي إليه في وقت آخر.. ثم رأى أن يكف عن هذا التردد الذي سوف يجعله يؤخر هذه الزيارة إلى أجل غير مسمى؟

وعقد العزم على زيارة ابن خاله أبي عبد اللطيف، واتجه من فوره إلى منزله، كان يحمل معه أكواماً من الهموم، وحين رأى السكن الراقي الذي يسكنه، ودخل إلى مجلس الضيوف، دار في ذهنه أن رجلاً له كل هذه الأشياء هو رجل سعيد حقاً. وراح يوازن بين فقره وغنى صاحب الدار، بين جمال هذا السكن وتواضع مسكنه، بين هذا الأثاث الفاخر وسقط المتاع في بيته، بين حديقة الفلة الرحبة المنسقة وبين مقدمة منزله الضيقة، بين الهدوء الرائع هنا وبين الصخب والضجيج والإزعاج هناك، بين... وبين .. وبين .. وبين، موازنات كلها تنتهي قطعاً لصالح أبي عبد اللطيف. وما هي إلا برهة حتى جاء صاحب الدار تسبق خطواته كلمات التحية، وحسن الضيافة التي تفرش له المودة في صدر كل من عرفه.

وجلس أبو عبد اللطيف يسأل عن الأبناء ودراستهم، وعن العمل وأخباره وهو يردد بكلمات مقتضبة ما يفيد أن كل شيء على ما يرام وفاجأه بقوله:

- ما شاء الله كم صار لك من الأولاد؟

- عندي خير... يا (أبو عبد اللطيف)، الله يصلح ما أعطى.

- ما شاء الله..

- تسعة: خمسة أولاد وأربع بنات... الله يصلحهم.

- ما شاء الله.. الله يصلحهم ويطرح فيهم البركة.

- آمين..

ثم أمسك بخيط الحديث وهو يقول:

- وأنت يا (أبو عبد اللطيف) إن شاء الله ارتحت في رحلتك السياحية مع الأهل؟؟

تنهد أبو عبد اللطيف وهو يقول:

- من قال إنها رحلة سياحة وتفرج؟!

- هذا ما أتوقعه!

- لكن أنا وأم عبد اللطيف ما تركنا مركزاً مشهوراً لمعالجة العقم إلا ذهبنا إليه، طاحت أرجلنا من كثرة التنقل من عيادة إلى عيادة، ومن طبيب إلى طبيب، ومن مستشفى إلى مستشفى.

- وإن شاء الله وجدتم الشفاء.

- كلهم يقولون ما فيه أمل.

- الأمل بالله.

- ونِعْمَ بالله، ولكن البنين زينة الحياة الدنيا. (قال العبارة بلهجة تنم عن حزن شديد).

وشعر أنه قد نكأ جرحاً في نفس صاحبه، يا إلهي هل للأبناء كل هذه القيمة؟؟ وأنا أزهد فيهم، وأتضايق منهم..!!! هذا الرجل الماثل أمامي في صحته وعافيته وغناه، وقصره المنيف، ومع ذلك ينسى كل ذلك ويذكر شيئاً واحداً وهو أنه ليس له ذرية !! كيف له أن يجحد نعمة ربه ويتمنى في أحيان كثيرة لو لم ينجب هذا العدد من الأولاد والبنات!! وأبو عبد اللطيف يطوف الدنيا، ويبذل ماله كله مقابل أن يرزق بابن واحد فقط، واحد على الأقل.

قطع أبو عبد اللطيف عليه هواجسه وهو يقول:

- كم تمنيت أن يدوي صراخ الأطفال في مسكني هذا، وسأكون في أشد حالات السعادة، حين أراهم قد عصفوا بكل هذه التنميقات والأثاث الفاخر الموضوع بكل عناية ودقة.. وليذهب كل شيء إلى الجحيم غير مأسوف عليه.. ويأتي لي ولد أسميه عبداللطيف على اسم والدي وأصبح أبو عبد اللطيف حقيقة!!

وختم حديثه بقوله:

- الله يبارك لك في أولادك، إنهم هم الخير والبركة..

- لكن... لهم مطالبهم.. ومعاناتهم.. يمكن ربي قد رحمك من الهم والغم الذي يأتون به.

- لكن مهما كانت أخف وألطف من عدم وجودهم!!

وحين رأى معاناة أبي عبد اللطيف. نسي أن يطلب منه مبلغاً يساعده به كالعادة، وشعر أنه قد أعطاه ما هو أثمن، أعطاه شيئاً ثميناً... اكتشف أن لديه كنزاً لا يُقدَّر بثمن، حري أن يفرح به، وأن يسعد به، وأن يصبر عليه.. غداً وكل غدٍ قريب، سوف يكبر الأبناء والبنات ويخدمون أنفسهم بأنفسهم، ويسعدونه هو ووالدتهم.

واستأذن للخروج فيما امتدت يد أبي عبد اللطيف بمبلغ من النقود، أربعة آلاف ريال قال وهو يمدها:

- خذ هذه سلفة نحن إخوان..

وحين رأى تمنعه ألحَّ عليه، ثم ألحَّ عليه أكثر قال له:

- خذ.. من عسرك إلى يسرك إن شاء الله.

وعلى الرغم من كثرة إلحاح أبي عبد اللطيف إلا أنه في هذه المرة لم يمدّ يده ليأخذ المبلغ، قال له بثقة وطمأنينة:

- عندي كل خير.. خيرك سابق يا (أبو عبد اللطيف)، جئت لأسلِّم عليك.. أنت ذخر يا (أبو عبد اللطيف) أنا أعدُّك ذخراً.. الله يجمِّل حالك.. عندي كل خير..

وخرج من منزل أبي عبد اللطيف فرحاً مسروراً، شعر أنه أعطاه هذه المرة أكثر من أي مرة سابقة، فتح عينيه على قيمة أبنائه وبناته، وعرف أنه ما كان له أبداً حق أن يتأفف من وجودهم

أو يتضايق منهم.. وهل يتضايق الإنسان حينما يضع الله بين يديه كنزاً من الكنوز الثمينة..؟؟!!

وقبل أن يعود إلى منزله مرَّ على محل الحلويات، واشترى منه بالخمسين ريالاً التي كانت معه، لم يكن معه غيرها، واتجه إلى المنزل، وحالما دخله، كان الضجيج والإزعاج على أشده، لكنه لم يتأفف من إزعاجهم هذه المرة، ولم يسخط من صخبهم، ولم يرفع صوته باللوم والتقريع عليهم، بل كان يبتسم ابتسامة رضا وسرور، ودفع إليهم بالحلوى، وبقي سعيداً في غاية الابتهاج، وهو يرى المعركة البريئة التي تدور رحاها أمام ناظريه.